

رعاية المماليك للغة العربية وعلومها

لقد كان المماليك يُجلبون من بلاد لا يعرفون لها تاريخًا يتمون له، ولا أدبًا يتمسكون به ويسعون في نشره، ثم هم يحكمون شعبًا مسلمًا يتعصب لإسلامه ولغته، فلا يستطيع حاكم مهما كان خطره أن يظهر بغير التجلة لهذا الدين والإعزاز لتلك اللغة - والنحو عصبها، بل هو أهدى سبيل إليها.

فإذا انضاف إلى هذا أنهم وقد تمسكوا بهذا السلطان الواسع واستقام لهم ذلك الملك الكبير أرادوا أن يرفعوا لأنفسهم ذكرًا في الغابرين، ويخلدوا لهم أثرًا في الباقين، وليس لهم ما يباهون به في آبائهم الأولين، اتضح سبب احتضانهم للعلماء وبدا سر حديهم على اللغة العربية ومقوماتها من العلوم اللسانية، وما كان من حرصهم الشديد على بناء المدارس والمساجد، وقد كانت الثانية تؤدي رسالة الأولى وتضطلع بمهمتها من قبل وجودها ومن بعد، بل لقد كانت المساجد أوسع نطاقًا وأهم نفعا، وكانت عنايتهم بها أكثر، وحظها من العمارة أوفر؛ يشهد لذلك إحكام صنعها وبقاؤها تصارع الأيام، ويؤيده ما رواه التاريخ من أنها كانت مستقر فطاحل العلماء، ومهبط الوافدين عليهم، يقطفون من رياضهم، ويفرفون من حياضهم؛ ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون.

ولم يكن بدعًا مبالغتهم في إكرام العلماء والمؤلفين، بل كانوا تبعًا للخلفاء العباسيين، فقد سبقوهم، وأراد المماليك أن ينهجوا نهجهم ويقتفوا أثرهم ليتبؤوا مكانتهم، ويبلغوا شأوهم؛ فكان منهم للعلماء هذا الصنيع المشكور والعمل المبرور.

ولم تقف همة المماليك عند بناء المساجد والمدارس بل لقد عُنوا بالتنقيب عن الكتب القيمة، لتكون مراجع للمؤلفين، فجمعوا منها ما استطاعوا الحصول عليه مما لم تصل إليه أيدي التتار الأوائم فأمدوهم به وجعلوه في خزائهم.

وكان من آثار هذه النهضة المباركة أن اردانت كبريات المدن في مصر وفي الشام بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وزخرت خزائن الكتب فيها بأنفس المؤلفات، وأثمن المخطوطات، وجعلت «قوص» و «أسيوط» تردد صدئ الحركة العلمية في القاهرة والإسكندرية، تضارعهما في ذلك دمشق وحلب وغيرهما بالشام.